

مفاتيح ثلاثة لفتح باب الصوم الكبير

الأرشمندريت برنابا لامبروبولوس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في إنجيل أحد مرفع اللحم، تأخذ الكنيسة ثلاث قطع ذهبية من العظة على الجبل وتعطيها لنا لصنع مفاتيح نفتح بها باب الصوم الكبير.

أ. المغفرة لمن ظلمنا

المفتاح الأول هو رغبتنا في مسامحة أولئك الذين ظلمونا بأي شكل من الأشكال. من حيث الجوهر، يكرر المسيح هنا ما قاله في الصلاة الربية (متى ٦: ١٢): "اغفر لنا ما علينا كما نغفر لمن أخطأ إلينا". كما نرى، فإن الغرض من الوصية بمسامحة الذين أساءوا إلينا ليس تحسين صورتنا الاجتماعية، ولا حتى التعايش السلمي مع الآخرين. قبل كل شيء، إنها دعوة لتكون مثل المسيح. الهدف هو تعليمنا كيف نحب، كما فعل المسيح. على الصليب سامحنا نحن الذين صلبوه. وإذا فتحنا محبتنا للآخرين، حتى لأعدائنا، في تمثّلنا به، فإن جواب المسيح يكون مغفرة خطايانا. بعبارة أخرى جوابه يكون خلاصنا.

إذ ندخل الصوم الكبير، نبدأ رحلةً تنتهي بالسجود لآلام المسيح، الذي صُلب من أجل خطايانا بهدف غفرانها. لقد أخذ خطايانا على عاتقه، ليس فقط ليبرحنا ولكن ليحررنا من عواقبها الوخيمة: الانحلال والموت والانفصال التام عنه. الآن إذ نهيء لإكرامه، يدعونا المسيح للعمل معه من أجل هذه النجاة الخلاصية، من خلال تحملنا العبء السهل المتمثل في مغفرة تجاوزات الآخرين.

هذا التعاون الذي هو شرف عظيم لنا وضروري جداً لخلاصنا، يوضح إفراط لطف الله في محبته لنا، كما يصفه أحد الكتاب. المسيح يجعلنا سادة مغفرة خطايانا. إن مغفرة خطايانا لم تعد تعتمد على الله بل علينا أيضاً. بقدر ما نغفر للآخرين هو سوف يغفر لنا.

ب. الصوم الصحيح

المفتاح الثاني الضروري لدخول الصوم الكبير بفرح هو الممارسة الصحيحة للصوم. الوصية بالصوم التي أعطها الله في وقت مبكر كشرعية لموسى لا تهدف إلى الترويج للذات وإبرازها، ولا هي تهدف إلى الحفاظ على الصحة التي يتباهى بها كثيراً اليوم. الصوم هو السيطرة الطوعية على نظرتنا الأنانية والجسدية حتى نتمكن من التعبير عن محبتنا وامتناننا للمسيح. نشكره وهو الذي لم يضم فقط بصرامة بل عانى أيضاً من الموت على الصليب ليهي لنا قيامة أجسادنا. نصوم من منطلق الطاعة والمحبة نحو المسيح. وهنا أيضاً، يؤكد المسيح أن طاعة مشيئته مقبولة عنده عندما تتم بدون رياء أو أي نزعة نحو تعظيم الذات. إن تفاخر الفريسي وعبوسته لا يتشاركان شيئاً مع تواضع العشار وتوبته اللذين هما هدف الصوم الكبير. لا ينعم بموهبة فرح

القيامة "علائية" إلا أولئك الذين عملوا بأمانة و "سرّاً" وصدوا بشكل ثابت كل أفكار المجد الباطل والرضا عن النفس.

ج. الإحسان بسخاء

المفتاح الثالث للدخول إلى الصوم الكبير يتعلق بالجهاد ضد تعبير آخر عن نظرتنا الأنانية والجسدية: الجشع. إن رب المجد المصلوب، الذي سوف نسجد له يوم الجمعة العظيمة، لم يمت ببساطة عارياً على الصليب، بعد أن سمح للآخرين بانتزاع ثيابه الوحيدة المتبقية. لم يكن لديه حتى القليل من الأرض حيث يمكن دفنه. من خلال هذا الممارسة الطوعية الأخيرة للفقر، يرغب في علاج جشعنا السخيف، الذي يضع الأشياء على الأرض ككنوز، على الرغم من أنها في معظمها تصبح طعاماً للديدان أو للنهب من اللصوص. بالأحرى، إنه يحثنا على ممارسة الإفراط في توزيع الصدقات والذي من خلاله نخزن كنزاً نقياً في السماء.

في إنجيل أحد الغفران، ينتهي المسيح بعبارة تلخص المفاتيح الذهبية الثلاثة للصوم. المغفرة والصوم والإحسان. إنها تفتح الباب للصوم وتجعله طريقاً حقيقياً لعيد الفصح، متى وإذا كان كنز قلوبنا هو المسيح، الذي نعتبره كنز قلوبنا الذي لا يقدر بثمن، والذي نعطيه قلوبنا. بدون هذه المحبة للمسيح المصلوب القائم من بين الأموات، وبدون هذا الشوق والجوع للحمل المذبوح، الذي سيقدم لنا على مائدة عيد الفصح، فإن كل ممارسات الفضائل ليست أكثر من تقنيات بشرية لتحسين الذات، معزولة عن أي احتمال لفرح الصليب والقيامة.

إن "القَوْمِ الواثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْرَارٌ" (لوقا ١٨: ٩) قد عزلوا أنفسهم عن عشاء قيامة المسيح. إنهم مكتفون بفضائلهم واكتفاءهم الأناني بتقدمهم الأخلاقي. إذا أردنا أن نلبس ثياب العرس التي تسمح لنا بالجلوس إلى مائدة الملكوت، علينا أن نعزي ذواتنا ليس فقط من خطايانا بل أيضاً من كل اكتفاء ذاتي وتبرير ذاتي، تثقل علينا عادةً كنتيجة لإنجازاتنا الأخلاقية المفترضة.